

## الفصل السابع والعشرون

### كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء الخلق محبوبون بثلاث: حب الدرهم وطلب الرياسة وطاعة النساء. وقال بعض العارفين الذى قطع العباد عن الله عز وجل ثلاثة أشياء: قلة الصدق فى إرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى. وقال بعض علمائنا إذا كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والاختلاف موجوداً لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحير المرید.

واعلم أن المرید لا بد له من خصال سبع، الصدق فى الإرادة وعلامته إعداد العدة ولا بد له من التسبب إلى الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء، ولا بد له من المعرفة بحال نفسه، وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس، ولا بد له من مجالسة عالم بالله، وعلامة ذلك إثارة على ماسواه، ولا بد له من توبه نصوح، فبذلك يجد حلوة الطاعة ويثبت على المداومة. وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه، ولا بد له من طعمة حلال لا يئتمها العلم، وعلامة ذلك الصلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع، ولا بد له من قرين صالح يوازره على ذلك، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان. فهذه الخصال السبع قوت الإرادة لا قوام لها إلا بها. ويستعين على هذه السبع بأربع من أساس بنيانه وبها قوة أركانه. أولها الجوع، ثم السهر، ثم الصمت، ثم الخلوة، فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقيدها، بهن تضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها. ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب، فأما الجوع فإنه ينقص من دم القلب فيبيض، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفى ذوبه رفته، ورقته مفتاح كل خير، لأن فى القسوة مفتاح كل شر، وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدو منه، لأن دم القلب مكانه، فإذا رقق القلب ضعف سلطان العدو منه لأن فى غلظ القلب سلطانه، والفلاسفة يقولون إن النفس كلبية الدم، وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه مع روحه. والعلماء منهم قالوا الدم هو مكان النفس وهذا هو الصحيح، لأنه موطن؛ لما فى التوراة. سمعت أن فى التوراة مكتوباً ياموسى لا تأكل العروق فإنها مؤى كل نفس، وهذا مُصدّق للحديث الذى روى أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش. وقد عبر علماء الكوفة عن الدم بالنفس، فقالوا إذا مات فى الماء من

الهوام ماليس له نفس سائلة لم يُنَجَس، يعنون الخنافس والصراصر والعناكب. ففي الجوع نقصان الدم، ونقصانه ضيق مسلك العبد وضعف مسكن النفس لسقوط مكانها. وفي خبرٍ عن عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين جُوعوا بطونكم وعطشوا أكبادكم وأغرؤا أجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل، يعنى بحقيقة الزهد وصفاء القلب . فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة، وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفي ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما فى الجوع إيثار الصمت، وفى الصمت السلامة، وهى غاية للعقلاء. وقال سهل رحمه الله اجتمع الخير كله فى هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، والسهر، والاعتزال عن الناس. وقال من لم يصبر على الجوع والخسر لم يتحقق بهذا الأمر. وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوّل الصديقون صديقين إلا بالجوع والسهر، فإنه ينير القلب ويجلوه، وفى استنارته معاينة الغيب، وفى جلالة صفاء اليقين، فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرقّة فيصير القلب كأنه كوكب درى فى مرآة مجلوة، ويشهد الغيب بالغيب فيزهد فى الفانى لما عاين من الباقي، وتقل رغبته فى عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبّال العقاب، ويرغب فى الطاعات لمشاهدة الآخرة ويرفع الدرجات ، فيصير الأجل عاجلا ويكون العاجل غائبا، ويصير الغائب حاضرا والحاضر آفلا، فيطلبه ويرغب فيه فلا يحب الأقل ولا يبتغيه، ويطلب الأجل ويرغب فيه، وينكشف له عوار الدار، ويظهر له بواطن الأسرار، ويوزل عنه كامن الاغترار، فهناك صار العبد مؤمنا حقا بوصف حارثة الأنصارى إذ يقول: عزفت نفسى عن الدنيا وكأنى أنظر إلى عرش ربي تعالى بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعاون. وكذلك وصّف رسول صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن فى قوله القلوب أربعة، قلبٌ أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن ، وانجراد القلب بالزهد فى الدنيا وتجرده من الهوى، وسراجه الذى يزهر فيه هو نور اليقين به يُبصر الغيب.

وقال بعض علمائنا من سهر أربعين ليلة خالصا كوشف بملكوت السماء. وكان يقول اجتمع الخير كله فى أربع نكّرَ منها سهر الليل. واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام، مكاشفة لهم، وشهود وتقريب لهم منه وورود. ومن صفة الأبدال أن يكون أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. ومن سهرَ بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار فإنه أسهره بالليل فى خدمته. ودخل الحسن ذات يوم إلى السوق فسمع لفظهم وكثرة كلامهم، فقال أظن ليل هؤلاء ليل سوءٍ ما يقيلون. وفى الخبر قيلوا فإن الشياطين لا تُقيل، واستعينا

على قيام الليل بقائلة النهار. وقد قيل فى قوله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة، قيل بالصوم على قيام الليل. وقيل استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس. وقيل استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهى.

وأما الصمت فإنه يُلَقِّحُ العقل ويُعَلِّمُ الورع ويجلب التقوى ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيع مخرجا، ويوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد. وقد قال بعض السلف تعلمتُ الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ثلاثين سنة، كنت إذا هممت بالكلمة تلجلج بها لسانى فيسكت. وقال بعضهم جعلتُ على نفسى بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعنينى صلاة ركعتين، فَسَهَلَ ذلك علىّ، فجعلت على نفسى بكل كلمة صوم يوم فَسَهَلَ علىّ، فلم أنته حتى جعلت على نفسى بكل كلمة أن أَتَصَدَّقَ ب درهم فَصَعَبَ ذلك فانتهيت . وقال عُقْبَةُ بن عامر يارسول الله فيم النجاة، قال أملكُ عليك لسانك، وَليَسَعَكَ بيتكُ، وإبِك على خطيبتك. وقال صلى الله عليه وسلم فى الخبر الجامع المختصر مَنْ سرّه أن يسلم فليلزم الصمت. وأوصى رسوله صلى الله عليه وسلم معاذاً بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال فى آخر وصيته ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله، هذا وأوماً بيده إلى لسانه، فقلت يارسول الله وإننا لمؤاخنون بما تتكلم به السنننا؟ فقال تُكَلِّتُك أُمُك يا معاذ، وهل يكبُ الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حساندُ ألسنتهم . إنك ماسكتَ فإنك سالم، فإذا تكلمتَ فإنما هو لك أو عليك. وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه، قال قلت يارسول الله أوصنى بشئ فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال قل ربي الله ثم استقم، قال قلت فما أتقى بعد ذلك؟ وفى لفظ آخر فأخبرنى بأضر شئ علىّ؟ فقال هذا، وأوماً إلى لسانه.

وفى الخبر لا يتقى العبد ربه تعالى حق تقاته حتى يخزن من لسانه. وفى الحديث لا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه. وقال ابن مسعود ليس شئ أحق بطول سجن من لسان. وقال بعض السلف فتشتُ الورع فما وجدتُ فى شئ أقل منه فى اللسان. وقال بعض العلماء ما استقام لسانُ عبد إلا عرفتُ الصلاح فى سائر عمله ، وما اختلف لسانه إلا عرفتُ الفساد فى سائر عمله . وقال بعض الحكماء إذا كثُر العقل قل الكلام، وإذا قل العقل كثُر الكلام، وقال أحمد بن حنبل علماء أهل الكلام زنادقة. وقال بعض هذه الطائفة من تكلم فأحسن كثير، ولكن الشأن فيمن يُحسن أن يسكت. وقال نو النون المصرى

الخوف يُقلق والحياء يُسكت. وقال بعض العارفين قد جرى هذا العلم على قسمين ، نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه . وقال الضحّاك بن مزاحم أدركتهم وما يتعلمون إلا الصمت والورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام. وقال الحسن عن أنس بن مالك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع لا يُصبن إلا بعُجب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع، ونِكر الله عز وجل، وقلة الشئ. وقال حمّاد بن زيد قلت لأبيوب : العلم اليوم أكثر أو فيما مضى كان أكثر؟ فقال يابني: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما مضى كان أكثر. وقيل كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه. وقد قيل من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه. وقيل لبعض العلماء فلان أعلم أم فلان؟ فقال فلان أعلم، وفلان أكثر كلاما. ففرّق بين العلم والكلام. وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته دلّنا على رجل نجس إليه بعدك، فقال لهم فلان، فذكّر لهم رجلا صموتا متعبداً لا يُعرف بكثير علم، فقيل له إن فلانا ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل مانسأله عنه من العلم، فقال قد علمت ، ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم. وكان الأعمش يقول من الكلام كلامٌ جوابه السكوت. وقال بعض السلف الصمت زين العالم وسير الجاهل. وقال غيره الصمت جوابه. وفي الخبر الصمت زين للعالم وشين للجاهل. وقال بعضهم ليس الشئ أشد على الشيطان من عالم حليم إن سكت سكت بطم. يقول الشيطان انظروا إليه، سكوتُه أشد على من كلامه. وقال بعض السلف تعلّم الصمت كما تتعلم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيدك. ولك في الصمت خصلتان، تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقال بعض العلماء تعلّم لا أدري، ولا تتعلم أدري، فإن قلت لا أدري علموك حتى تدرى، وإن قلت أدري سألوكم حتى لا تدرى. وقد قال العلماء إذا أخطأ العالم قول لا أدري أصيبت مقائلته. وقال عيسى عليه السلام الخير كله في ثلاثة، في الصمت والكلام والنظر، فمن لم يكن صمته تفكراً فهو في سهر، ومن لم يكن كلامه نكراً فهو لغو، ومن لم يكن نظره عبراً فهو لهو. وقال بعضهم يأتى على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم وأفضل علومهم الصمت، يعني لفساد الأعمال ولاشتباه العلم. ويقول أيضا مع ذلك، وأفضل أحوالهم الجوع لانتشار الحرام وغموض الحلال . وقال بعض العلماء الصمت نوم العقل والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم. وما صمّت عاقلٌ قط إلا اجتمع عقله وحضر لبّه. وفي وصية ابن عباس مجاهداً لا تتكلمن فيما لا يعينك فإنه أسلم ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلم فيما يعينك حتى ترى له موضعاً، فربّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه في غير

موضعه فَعَنَت . وقال بعض العلماء: يستبين ورع الرجل في منطقه. وفي الخبر مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، ومن كَثُرَ سَقَطُهُ مات قلبه. ويقال إذا قل الكلام كَثُرَ الصواب. وعن جماعة من السلف أن تسعة أعشار السلامة في الصمت. ويقال كل كلمة مِنْ هزل أو مزح أو لغو يوقف العبد عليه خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أولها أن يقال له لِمَ قلت كلمة كذا، أكانت فيما يعينك؟ والثانية هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة هل ضرتك لولم تقلها؟ والرابع أَلَا سَكَتَ فربحت السلامة من عاقبتها؟ والخامسة هَلَا جعلت مكانها قول سبحان الله والحمد لله فغنمت ثوابها؟ ويقال ما من كلمة إِلَّا وينشر لها ثلاثة دواوين، الديوان الأول لِمَ ، والثاني كيف، والثالث لِمَنْ، فإنْ نجامن الثلاث، وإلّا طال وقوفه للحساب. وقال الحسن لسان المؤمن قلبه، إذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإنْ كان له تكلم، وإنْ كان عليه أمسك. وقلب المنافق على طرف لسانه، أى كل شئ خطر بقلبه تكلم به ولا يتوقف ولا يثنئ. وفي الخبر مِنْ أفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت. وفي الكلام تنميق وزيادة، وفي الصمت سلامة وغنم. وفي موعظة النبي صلى الله عليه وسلم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله. والأخبار في الصمت وفي جميع ما ذكرناه من المعاني تكثر ولم نقصد جمعها.

وأما الخلوة فإنها تُفرغ القلب من الخلق، وتُجمع الهمَّ بأمر الخالق، وتُقوى العزم على الثبات، إذ في مخالطة الناس وهنُّ العزم وشتات الهمَّ وضعفُ النية. والخلوة تُقلِّ الأفكار في عاجل حظوظ النفس لفقدها مشاهدتها بالأبصار، لأن العين باب القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندما توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء من كُثرت لحظاته دامت حسراته. والخلوة تجلب أفكار الآخرة وتُجدد الاهتمام بها لما شهد به الإتيان، وتُنسى أذكار العباد وتواصل ذكر المعبود . والخلوة من أكبر العوافي، وذلك أنه قد جاء في الحديث سَلُوا اللَّهَ العافية، فما أُعطي عبدٌ بعد اليقين أفضل من العافية. ثم قد روى في الخبر العزلة عن الناس عافية، فدخل ذلك في معنى ما نُدب إليه من السؤال، وفيما فضّل بعد اليقين على جميع الأحوال. ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده في الجماعة، ويجد في السرِّ من النشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، ويكون أنسه في الوحدة وروحه في الخلوة وأحسن أعماله في السرِّ. ومثل الخلوة في الأحوال من المخالطة للناس مثل الخوف في المقامات من المحبة . الخوف يصلح لجميع العابدين، والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين. كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين، والأُس بالناس مزيد لأهله خاصة من الأئمة العالمين،

إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر، والوحدة والانفراد يحتاج إلى إيمان ثان. وقد روينا عن سفيان الثوري وعن بشر بن الحارث إذا استوحشت من الوحدة واستأنست بالخلق لم آمن عليك الرياء . وكان أبو محمد يقول اجتمع الخير كله في هذه الخصال الأربع، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل. وحدثت عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال مخالطة الولي للناس ذل، وتفرده عز، وقل ما رأيت ولياً لله عز وجل إلا منفرداً . وقال بعض العارفين الأئس بالوحدة علامة وجود الطريق. فمن علامة صدق الإرادة بعد صحة التوبة وقوة العزم على الاستقامة إيثار هذه الأربع التي نكرناها على أصدادها، ووجود القلب عندها وانشراح الصدر بها وحسن الخلق معها، لأن ضدها هو أبواب الدنيا ومفاتيح الغفلة، وطرقات الهوى من ذلك، فإن في الشبغ قسوة القلب وظلمته، وفي ذلك قوة صفات النفس وانتشار حظوظها، وفي قوتها وبسطها ضعف الإيمان وخمود أنواره، وفي ضعف النفس وخمود طبيعتها قوة الإيمان واتساع شعاع أنوار اليقين، وفي ذلك قرب العبد من القريب، ومجالسته للحبيب.

والشبغ مفتاح الرغبة في الدنيا . وقال بعض الصحابة أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبغ، إذ القوم لما شَبَّعَتْ بطونهم جمحت بهم شهواتهم. وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير إعواز، أي مختارين لذلك. وقال ابن عمر ما شبعتم منذ قُتِلَ عثمان رضي الله عنه، وقال هذا في زمن الحجاج. وفي حديث أبي جحيفة لما تَجَشَّأَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له أَكْفِفُ عَنَا جُشَاكُ فَإِنِ أَطْوَلَكُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَكْثَرَكُمْ جُوعًا فِي الآخِرَةِ، فقال والله ما تمليت طعاما من يومئذ إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمني الله عز وجل فيما بقى.

ويُستحب على هذا أن يكون جوع العبد في الدنيا أكثر من شبغه، وهي علامة الأولياء، فمن كان له أكلة بين جوعتين إلى منتهاهما فجوعه حينئذ أكثر من شبغه، ومن كان له بعد جوعه بالغة شبعة متوسطة فقد اعتدل شبغه وأكله وجوعه، ومن أكل في يوم مرتين أو أكل من غير جوع ثم شبع، فَشَبَّعَهُ أَكْثَرَ مِنْ جُوعِهِ وَهَذَا مَكْرُوهٌ. وكل من أكل بعد الجوع ورفع يده قبل الشبغ فجوعه أكثر من شبغه، وهذا أوسط الأحوال. وقال هشام عن الحسن والله لقد أدركت أقواما كانوا لا يشبعون، يأكل أحدهم حتى إذا ردَّ نفسه أمسك ذائبا ناحلاً مُقبِلاً على نية،

يعيش عمره كله ماطوئى له ثوب قط، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط. وقال جعفر بن حيان عن الحسن: المؤمن لا يأكل فى كل بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه. وروينا عن الثورى خصلتان تُقْسِيَانِ القلب: طول الشبوع وكثرة الكلام. وروينا عن مكحول : خصال ثلاث يحبها الله عز وجل، وثلاث يبغضها الله عز وجل، فأما اللاتى يحبها فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وأما اللاتى يبغض، فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم، فأما النوم فإنّ فى مداومته طول الغفلة وقلة العقل ونقصان الفطنة وسهوة القلب، وفى هذه الأشياء الفوت، وفى الفوت الحسرة بعد الموت . وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال، قالت أم سليمان بن داود لابنها يابنى، لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم تترك العبد فقيراً يوم القيامة. وقيل كان شبّان يتعبدون فى بنى إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال يامعشر المريرين، لاتاكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً. وكان بعض السلف يقول أدنى أحوال المؤمن الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق الأكل والنوم. وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء صف لى شيئا أستعمله حتى أكون أنام النهار، فقال يا هذا ما أضعف عقلك، إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نوما وربعه حياة؟ قال وكيف؟ قال أنت إذا عشت أربعين سنة فإنما هى عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟

وأما كثرة الكلام فإن فيه قلة الودع، وعدم التقوى، وطول الحساب، وكثرة المطالبين، وتعلق المظلومين، وكثرة الأشهاد من الأملاك المكاتبين، ونوام الإعراض من الملك الكريم، لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان ، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن والافتراء على الله تعالى والإيمان ، وفيه القول فيما لا يعنى، والخوض فيما لا ينفع. وقد جاء فى الخبر أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه، وأكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم خوضا فيما لا يعنيه. وفى اللسان التزيّن والتصنّع للخلق، والتحريف والإحالة لمعانى الصدق، وفيه المداهنة والمواراة والتعلق لأهل الأهواء. وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفى شتاته تفريق همّه، وفى تفريق همّه سقوطه من مقام المقرّبين.

وفى وصية ابن عباس لمجاهد لاتمارين حلّما ولا سفيها، فإن الحلّيم يقلّك، وإن السفيه يؤذيك . وفى الخبر أن العبد ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالاً، يهوى بها أبعد ما بين السماء

والأرض. وفي لفظ آخر لَيَتَكَلَّمُ بِهَا فِيهِرَى فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا. وقال لقمان لابنه لأن تعيش أخرس يسيلُ لعابك على صدرك خيرٌ لك من أن تتنطق في نادي القوم بما لا يعينك. وفي خبر مَنْ افْتَتَحَ بِكَلِمَةٍ سِوَهُ ثُمَّ خَاضَ النَّاسَ فِي مِثْلِهَا كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِهِمْ. وفي الخبر لا يَأْتِي بِخَبْرِ السُّوءِ إِلَّا رَجُلٌ السُّوءِ. وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا صحبه رجل فجاه بخبر سوء فارقه.

ورويانا في الحديث مَنْ حَدَّثَ بِمَا سَمِعَتْ أُذُنَاهُ وَرَأَتْ عَيْنَاهُ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تُشَيِّعَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا. ورويانا عن عليّ رضي الله عنه منيعُ الفاحشة في الناس كفعالها. وفي الخبر أن بعض فقراء أهل الصَّفَةِ اسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَتْ أُمُّهُ هَنِيئًا لَكَ فِي الْجَنَّةِ، جَاهَدْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَاجَرْتَ إِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَتَلْتَ شَهِيدًا. طَوَّبِي لَكَ الْجَنَّةَ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يُدْرِيكَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا يَنْفَعُهُ، أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يَضُرُّهُ. وفي لفظ آخر لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يفنيه. وفي الخبر أن بعض الصحابة قال لرجل إنه لنؤم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم، سلّوه أن يستغفر لكم. وفي خبر آخر أنهم قالوا ما أعجز فلانا، فقال أكلتموه. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لامرأة ما أطول ذيلها. وفي لفظ آخر قالت إنها لقصيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتبتيتها. وفي خبر آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لقد تكلمت بكلمة لو مُزِجَ بِهَا مَاءُ الْبَحْرِ لَامْتَزَجَ. فهذا من وصف المبالغة في الشدة. وفي الخبر الجامع لهذه المعاني في وصف الغيبة ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في أخيه ما فيه فقد اغتابه. وفي حديث أبان عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من ذلك أنه قال الغيبة ما أن قلت في أخيك لم تُزَكِّه به، فهذا نهاية القول من الشدة وغاية التشديد في الغيبة.

والغيبة اسم لغوى معناه شرعى مشتق من غيب الإنسان، وفسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها أن يقول العبد في أخيه ما فيه، وعظّمها بقوله هي أشد من الزنا، فمتى قال العبد لأخيه في غيبته ما يعلمه يقيناً فيه مما لا يقوله بمحضه، أو مما يُنْقِصُهُ بِهِ، أَوْ لَا يُزَكِّيهِ فِيهِ، فَقَدْ اغْتَابَهُ. فلو لم يكن في الصمت إلا السلامة من الغيبة لكان ذلك غيبة موفورة. كيف وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام ابن آدم عليه، لا له إلا ثلاثة، أمرٌ

بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكّر الله عز وجل.

وأما مخالطة الناس فإنها تضعف العزم الذى كان قويا فى أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة، لقلّة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان. وفى مخالطة الناس قوّة الطلب، والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من إقبال أهلها عليه، وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر إلى أهل الغفلة، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة، ونقصان حلاوة المعاملة، وذهاب نور العلم، وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة، والنظر إلى الموتى من أبناء الدنيا. كما روى عن عيسى عليه السلام لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قيل ومن الموتى، قال المحبون للدنيا الراغبون فيها. وقد كان الحسن يقول فى قوله عز وجل وما يستوى الأحياء ولا الأموات، قال الفقراء والأعتياء، كأن الفقراء حيوا بذكر الله عز وجل، والأغنياء ماتوا على الدنيا. وأعظم ما فى مخالطة الناس ومجالسة أهل البطالة ونوى غفلتهم ضعف اليقين برؤيتهم، وأضر ما ابتلى به العبد، وأعمله فى هلاكه، وأشدّه لحبّه وإبعاده ضعف يقينه بما وعد به بالغيب وتوعد عليه فى الشهادة. وهذا أخوف ماخافه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته فيما روينا عنه أنه قال: أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين، وذلك أن ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا، والحرص على التكاثر منها، والتضرع إلى أبنائها والطمع فيهم. كما قال ابن مسعود إن الرجل ليخرج من بيته ومع دينه فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شىء، يلقى هذا فيقول إنك لذيت وذيت، ويلقى هذا فيقول أنت كيت وكيت، ولعله لا يخلى منهم بشىء، ويرجع إلى بيته وقد أسخط الله عز وجل. وقد قال بعض التابعين إن العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير، فيخرج إلى الناس فيحللون ما عقده عقدة حتى يرجع وقد انحلت العقد كلها.

وقوّة اليقين أصل كل عمل صالح، لأن فى قوّة يقينه سرعة منقلبه، وطول مثواه فى دار إقامته، إثارة لتقلل من الفانى وتقديمه للباقي، وضعف حرصه وقلة طلبه، وفقد طمعه وفراغه من الاشتغال بعاجله، وإقباله وشغله بما نُدب إليه من مستقره، وفى جميع ذلك إخلاصه فى أعماله، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله، وفى قصر أمله، وتحسين عمله. ألم تسمع إلى وصف من أخبر الله عز وجل عنه بالتكاثر الذى ألهاه حتى زار برزخه ومثواه، كيف تهدّده حتى يعلم يقينا، وتوعدّه إذا رأى آخرته عيانا، فقال سبحانه ألهاكم التكاثر، أى شغلكم الجمع

للكاثرة حتى حللتهم القبور. ثم قال كلا لو تعلمون علم اليقين، أى لشغلكم العمل الصالح للأخرة عن اللعب واللهو الذى هو مقتضى الشك إذ هو ضد اليقين، فاشتغلتم بالأخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب لعدم علم اليقين كما قال أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إننا موقنون، بعد أن قال بل هم فى شك يلعبون، ثم توعدهم على ذلك مرتين وتهددهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل، وقيل هو الجمع والمنع.

فاعلم أن الذى قَطَعَ العباد عن التوبة وخرج بالتائبين عن الاستقامة ثلاثة أشياء: الكسب والإنفاق والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاثة. وقال الثورى من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا. وقد قال بعض هذه الطائفة من الصالحين قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق، وقال مرة قلت له دأبى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى فى كل وقت مع الدوام، فقال لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة. قلت لى من ذلك. قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت لا بدلى من ذلك. قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة. قلت أنا بين أظهرهم لا بد من معاملتهم. قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة. قلت هذه العلة؟ فقال يا هذا أنتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عز وجل على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد، وفى فضل الصمت، وفى جميع ما نكرناه من الجوع والسهو ومن مكابدة الليل، ما يكثر جمعه، وفيما نبهنا عليه وأشرنا إليه، بلاغٌ وغنية لمن أراد الأخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

## الفصل الثامن والعشرون

### فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات المؤمنين

العبد إذا قوى يقينه علم علم يقين أن أوقاته هذه التى وكل تربيتة إليها، وجعل سبب نمائه وحياته منها، وهى مكررة عليه فى البرزخ، ومرودة إليه يوم القيامة، ومُعَادة عليه فى الجنة، إن دخلها ليس يُجَارَى هناك إلا بمقدار ما أُعْطِيَ من المعاملة هنا، ولا يُعْطَى ثم إلا بقدر ما